المنصرون والثقافة الإسلامية

دراسة تحليلية

د. صالح بن عبدالله بن مسفر الغامدي

أستاذ الثقافة الإسلامية المشارك بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية
كلية الدعوة وأصول الدين- جامعة أم القرى

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين وسيد المرسلين، سيدنا مُحَمَّد المبعوث رحمة للعالمين، وارض اللهم عن صحابته الطيبين، ومن اهتدى بهديه، وسلك نهجه إلى يوم الدين، أما بعد:

فيُعد التنصير من التحديات الخطيرة التي يواجهها العالم الإسلامي. وزاد من خطورته ارتباطه الوثيق بالهيمنة الغربية وأطماعها في بلاد المسلمين؛ الأمر الذي أخرج التنصير عن كونه دعوة لاعتناق النصرانية إلى أن يكون أداة لتحقيق تلك الهيمنة. ومن هنا جاءت فكرة هذا البحث تحت عنوان "المنصرون والثقافة الإسلامية"، ليتناول هذه الزاوية المهمة من زوايا حركة التنصير.

أهمية البحث وأسباب اختياره:

تكمن أهمية البحث في أنه يتناول جزئية دقيقة في حركة التنصير، وهي موقف المنصرين من الثقافة الإسلامية، أي موقفهم من نمط حياة المسلمين فكراً وسلوكاً.

أما عن أسباب اختيار هذا الموضوع للدراسة فيمكن إجمال أبرزها في الآتي:

1. الإسهام في كشف أساليب التنصير في العالم الإسلامي.
2. الحاجة إلى معرفة منطلقات المنصرين في تنصيرهم.
3. قلة المصادر التي تناولت دور المنصرين في مواجهة الثقافة الإسلامية.
4. الحاجة العلمية والفكرية لمثل هذه الأبحاث التي تخدم بمجموعها الحفاظ على الثقافة الإسلامية.

وأرجو أن يكون هذا البحث إضافة علمية جديدة في موضوعي التنصير والثقافة الإسلامية، ومن الله أرجو العون والتوفيق.

مشكلة البحث:

تكمن مشكلة البحث فيما بين التنصير والثقافة الإسلامية، فهل التنصير مجرد

حركة تدعو إلى النصرانية دون النظر إلى ثقافة المدعوين؟ أم أنها حركة تغيير لدين الناس وثقافتهم. هذه المسألة هي مشكلة البحث وموضع نظره.

أهداف البحث

تتلخص أهداف البحث في الآتي:

1. بيان طبيعة العلاقة بين المنصرين والثقافة الغربية.
2. توضيح موقف المنصرين من الثقافات الأخرى غير الغربية
3. تحليل موقف المنصرين من الثقافة الإسلامية تحليلاً علمياً دقيقاً.
4. الكشف عن دور المنصرين في التغريب.
5. بيان موقف المنصرين من وحدة المسلمين ولغتهم العربية.

الدراسات السابقة:

لم يطلع الباحث فيما بين يديه من المراجع والمصادر التي تناولت التنصير على دراسة علمية سابقة تناولت بشكل مستقل موقف المنصرين من الثقافة الإسلامية.

منهج البحث:

سلكت في هذا البحث المنهج التحليلي، الذي يقوم على: التفسير، والنقد، والاستنباط. وقد تجتمع هذه الثلاثة في مبحث واحد أو في مسألة واحدة، وقد أستعمل بعضها فقط في بعض المباحث والمسائل، وذلك بحسب الحاجة العلمية في هذا البحث.

خطة البحث:

اشتمل البحث على مقدمة وتمهيد وأربعة مباحث وخاتمة، على النحو الآتي:

المقدمة: وبها أهمية الموضوع وأسباب اختياره، ومشكلة البحث وأهدافه، والدراسات السابقة، ثم منهج البحث وخطته.

التمهيد: ويشتمل على التعريف بالتنصير ومرادفاته، وبالثقافة الإسلامية.

المبحث الأول: موقف المنصرين من الثقافات غير الغربية

المطلب الأول: العلاقة بين النصرانية والثقافة الغربية.

المطلب الثاني: المنصرون والثقافات الأخرى.

المبحث الثاني: موقف المنصرين من الثقافة الإسلامية

المطلب الأول: رفض الثقافة الإسلامية وتشويه صورتها.

المطلب الثاني: التنصير من خلال الثقافة الإسلامية.

المبحث الثالث: دور المنصرين في التغريب

المبحث الرابع: المنصرون ووحدة المسلمين ولغتهم

المطلب الأول: موقف المنصرين من وحدة المسلمين

المطلب الثاني: موقف المنصرين من اللغة العربية.

الخاتمة: وبها النتائج والتوصيات.

التمهيد

أولاً: مفهوم التنصير

التنصير لغة: التنصير في مدلوله اللغوي: الدعوة إلى اعتناق النصرانية. ففي المحكم لابن سيده: التَّنَصُّر الدُّخولُ في دِينِ النَّصارَى، ونَصَّرَهُ جَعَلَه كذلك [1]. وفي مختار الصحاح: نَصَّرَهُ تنصيرا جعله نصرانياً، وفي الحديث الشريف قال رسول الله ρ: «فأبواه يهودانه وينصرانه» [2][3]، وجاء أيضاً في لسان العرب: التَّنَصُّرُ: الدُّخُولُ فِي النَّصْرانية[4]، وفي القاموس المحيط: وتَنَصَّرَ: دَخَلَ في دِينهمْ. ونَصَّرَهُ تَنْصيراً: جَعَلَهُ نَصْرانِيّاً[5]. وفي تاج العروس: وَتَنَصَّر الرجلُ: دخلَ فِي النَّصْرَانِيَّة[6].

واصطلاحاً هو: دعوة غير النصراني إلى الدخول في النصرانية، بشتى الطرق والوسائل الممكنة.

وثمة تعريفات أخرى بُنيت على اعتبار الارتباطات والأهداف الملازمة للتنصير؛ كالسياسة والاستعمار والهيمنة، وغير ذلك. ومن تلك التعريفات على سبيل المثال:

---

(1) يُنظر: ابن سيده، علي بن إسماعيل، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1421هـ - 2000م). ج8، ص310.

(2) البخاري، مُحَمَّد بن إسماعيل، صحيح البخاري، تحقيق: مُحَمَّد الناصر، (جدة: دار طوق النجاة، ط 1، 1422هـ). كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه، رقم 1358، ج2، ص95؛ و مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تحقيق: مُحَمَّد فؤاد عبدالباقي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ط، د.ت). كتاب القدر، باب كل مولود يولد على الفطرة، رقم 2658، ج4، ص2047.

(3) يُنظر: الرازي، مُحَمَّد بن أبي بكر، مختار الصحاح، ، تحقيق: يوسف الشيخ مُحَمَّد، (بيروت: المكتبة العصرية، ط5، 1420هـ-1990م). ص311.

(4) يُنظر ابن منظور، مُحَمَّد بن مكرم، لسان العرب، (بيروت: دار صادر، ط3، 1414هـ). ج5، ص212.

(5) يُنظر: الفيروز آبادى، مُحَمَّد بن يعقوب، القاموس المحيط، ، (لبنان: مؤسسة الرسالة، ط 8، 1426هـ-2005م). ج1، ص483.

(6) يُنظر: الزَّبيدي، مُحَمَّد بن مُحَمَّد، تاج العروس من جواهر القاموس، (الكويت: دار الهداية، د.ط، د.ت). ج14ص230.

تعريف التنصير بأنه: «حركة صليبية سياسية منظمة، تتخذ من الدين ستاراً، تهدف إلى إخراج المسلمين وغيرهم من دينهم، وإدخالهم في النصرانية، أو تغريبهم، ودفعهم إلى الإلحاد، واللادينية، واللا أخلاقية، وفق منهج مدروس ومتكامل قائم على استغلال جميع الوسائل المادية والمعنوية المتاحة في جميع مجالات الحياة»[1].

ومنها أيضاً تعريفه بأنه: «نشاط دعوي نصراني بمختلف الوسائل والأساليب، ليتخذ الناس النصرانية ديناً لهم، أو يتخلوا عن دينهم الأصيل، وإعادة المخالفين إلى الإيمان بما تقرره الكنيسة المعنية بالنشاط»[2]

ثانياً: مرادفات التنصير

هنالك ألفاظ مرادفة للفظ التنصير عند النصارى، ومنها:

أ. التبشير، وهو التعبير النصراني لحملات التنصير، وهو الشائع لدى العديد ممن كتبوا في شأن التنصير من المسلمين.

ب. التكريز، ومعناه الدعوة إلى الدين (النصرانية)، وهي من كرز بالكلدانية أو من كريسين باليونانية، ومعناهما نادى ووعظ وأنذر[3]. وجاء هذا الاستخدام في نحو قول المنصرة إبرا هاريس، ناصحةً الطبيبَ الذاهب إلى التنصير،: "يجب أن تنتهز الفرص لتصل إلى آذان المسلمين وقلوبهم فتكرز لهم بالانجيل"[4].

(1) الخضري، أمل عاطف، التنصير في فلسطين في العصر الحديث، (رسالة ماجستير، كلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية-غزة، 1425هـ-2004م). ص9.

(2) ألارو، عبدالرزاق عبدالمجيد، التنصير في أفريقيا، (مكة المكرمة: سلسة دعوة الحق- رابطة العالم الإسلامي، د.ط، 1429هـ-2008م)، ص19.

(3) يُنظر: عبدالله البستاني، معجم البستان، (بيروت: المطبعة الأميركانية، ط.ب، 1930م). ج2، ص2069.

(4) مصطفى خالدي وعمر فروخ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، (بيروت: المكتبة العصرية، ط 3،

=

ثالثاً: مفهوم الثقافة الإسلامية

الثقافة Culture كما عرّفها إدوارد تيلور Edward Tylor في كتابه الثقافة البدائية Primitive Culture الذي صدر عام 1871م هي: «ذلك الكلّ المركب الذي يشتمل المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعرف وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في مجتمع»[(1)].

وفي أوائل القرن العشرين الميلادي تم تعريب كلمة Culture إلى لفظة "الثقافة"[(2)]، ومن ذلك الوقت حتى يومنا هذا لم تقف اجتهادات الباحثين عند تعريف واحد متفق عليه للثقافة الإسلامية، بل تعددت وتنوعت تعاريفهم لها. ويعود ذلك، أولاً: إلى سعة مدلول لفظ الثقافة Culture في موطنه الأصلي. وثانياً: إلى عمق ارتباط نمط حياة المسلمين (فكراً وسلوكاً) وتفكيرهم بدينهم. وهذا السبب الثاني هو جوهر الفرق بين الثقافة الغربية والثقافة الإسلامية.

ومن التعريفات الجيدة الشاملة للثقافة الإسلامية، تعريفها بأنها: «مجموعة المعارف والمعلومات النظرية والخبرات العلمية المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية، التي يكتسبها الإنسان، ويحدد على ضوئها طريقة تفكيره، ومنهج سلوكه في الحياة»[(3)].

1372هـ-1953م). ص62.

(1) نقلاً عن: نصر مُحَمَّد عارف، الحضارة- الثقافة- المدنية، (فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، د.ط، 1414هـ-1994م). ص20.

(2) ينظر: سلامة موسى، الثقافة والحضارة، مجلة الهلال، القاهرة، س 36، ع2، فبراير 1927م، ص171-174.

(3) مصطفى مسلم و فتحي الزغبي، الثقافة الإسلامية تعريفها مصادرها مجالاتها تحدياتها، (عمّان: إثراء للنشر والتوزيع، ط1، 2007م). ص18.

وأما من حيث أهمية الثقافة الإسلامية، التي هي مدار هذا البحث، فلا أجد في ذلك كلاماً أفضل وأدق من كلام عمر عودة الخطيب وهو يتحدث عن أهمية الثقافة في حياة الأمم، إذ يقول– رحمه الله–: «الثقافة – في حقيقتها– هي الصورة الحية للأمة، فهي التي تحدد ملامح شخصيتها وقوام وجودها، وهي التي تضبط سيرها في الحياة، وتحدد اتجاهها فيها، إنها عقيدتها التي تؤمن بها، ومبادئها التي تحرص عليها، ونظمها التي تعمل على التزامها، وتراثها الذي تخشى عليه الضياع والاندثار، وفكرها الذي تود له الذيوع والانتشار.. فإذا اهتزت هذه الصورة أو اضطربت ملامحها، أو طمسها الركام المتكاثف فوقها، لم يكن للأمة – بسبب ذلك– شخصية تميزها، أو سمات تنفرد بها، بل تصبح تبعاً لغيرها، حتى تنتهي إلى الاضمحلال، وتؤول إلى الزوال، وتلك هي الكارثة التي تخشى كل أمة حية أن تحل بها، فتمحق وجودها، وتطمس حياتها»[1].

ومن هذا المنطلق كان تناول مسألة موقف المنصرين من الثقافة الإسلامية في هذا البحث، وذلك لإماطة اللثام عن دقائق هذا الموقف وخططه وأساليبه، لا سميا وأن التنصير لا يزال يعمل في العالم الإسلامي، دون كللٍ أو ملل. والله ولي التوفيق.

المبحث الأول

موقف المنصرين من الثقافات غير الغربية

المطلب الأول: العلاقة بين النصرانية والثقافة الغربي

من المسلَّم به أن النصرانية ليست المكون الأساس الذي تقوم عليه الثقافة الغربية المعاصرة، وإنما هي عنصر من عناصرها العديدة. ومن ثَمَّ لا يمكن لنا أن نصف الثقافة

(1) الخطيب، عمر عودة، لمحات في الثقافة الإسلامية، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط 3، 1399هـ-1979م). ص13.

الغربية بأنها ثقافة نصرانية؛ لأنها لا تقوم على النصرانية كما هو حال الثقافة الإسلامية التي تقوم على الإسلام.

وإن طبيعة العلاقة بين الثقافة الغربية والنصرانية قد تجعل البعض يظن أن المنصرين بمنأى في عملهم التنصيري عن الثقافة الغربية، ولكن الواقع التنص يري يرينا خلاف ذلك تماماً، فهم يروجون لكتابهم المقدس وللثقافة الغربية في آن واحد.

والسبب في ذلك يعود إلى أن ارتباط حركة التنصير بالتوسع الاستعماري الغربي جعل منها – من حيث تشعر أو لا تشعر– أداة من أدوات نقل وترويج الثقافة الغربية. لا باعتبار أن النصرانية هي المكون الأساس للثقافة الغربية، فنشر إحداهما نشرٌ للأخرى، وإنما باعتبار أنها ثقافة القوة والتمدن والتوسع التي تنتمي إليها هذه الحركة.

يقول المنصر "بول هايبرت" وهو يتحدث حول مشكلة العلاقة بين كتابهم المقدس وثقافتهم: «إذا كانت الثقافة كلها نابعة من أفكارنا المكتسبة وأنماط سلوكنا فما هو إذاً الكتاب المقدس وكيف نفرق بينه وبين الثقافة؟ إن هذا السؤال صعب حقاً ويجب على المرء أن يواجهه في كل مرة ننقل فيها الكتاب المقدس إلى بيئة ثقافية جديدة. أما البديل الآخر فهو المساواة بين الاثنين أي الثقافة والكتاب المقدس، وأن نفرض على كافة المتَنصِّرين أن يصبحوا أمريكيين أو إنكليز أو غير ذلك حسب الانتماء الثقافي للمنصر نفسه» [1]. ولكنه بعد ذلك يقر بوجود الفرق بين النصرانية والثقافة الغربية. حيث قال: «لا بد لنا أن نعترف بوجود فارق بين الكتاب المقدس والثقافة، ورغم عدم سهولة التمييز بينهما يجب علينا بهدي من الروح القدس أن نفعل ذلك بصورة مستمرة لأننا بعكس ذلك سوف ننزل من مستوى الكتاب المقدس إلى

(1) بول ج. هايبرت، الكتاب المقدس والثقافة، (التنصير: خطة لغزو العالم الإسلامي، ترجمة المؤتمر التبشيري، كولورادو، مايو 1978م). ص80.

مستوى ثقافة معينة»[1]. أي لا بد لنا بالرغم من وجود الفارق بين ثقافتنا (الغربية) والكتاب المقدس أن نستمر في الترويج لهما، لأن الترويج للكتاب المقدس وفق ثقافة أخرى غير ثقافتنا فيه تنزيل من مستواه.

وعليه يمكن القول بأن قوة العلاقة بين حركة التنصير والثقافة الغربية تعود لسببين اثنين، هما:

الأول: الانتماء، فحركة التنصير تنتمي إلى ثقافة قوية ومتمدنة وتوسعية.

الثاني: الفوقية، إذ يرى المنصرون أن ترويج كتابهم المقدس بغير الثقافة الغربية إزدراء به، وإنزال لمستواه.

والنتيجة الطبيعية لهذه العلاقة هي رفض المنصرين للثقافات الأخرى غير الغربية ومعارضتهم لها، تماماً كما هو الحال مع معارضتهم ورفضهم للأديان الأخرى.

يقول المنصر "هارفي كون": «غالباً ما استخدمت اصطلاحات "بدائي" و "وثني" في المفهوم الاستعماري الغربي لتعني "غير متحضر"، وقد ربط هذا "المنهاج الخفي" مع جذور التقوى الدينية لحركة التنصير مما أدى إلى إيجاد صيغة تعتبر "المسيح ضد أي ثقافة لا غربية"»[2].

ويقول "سيرج لاتوس"، صاحب كتاب "تنصير العالم"، وهو يتحدث عن أن المسيحية أكثر عالمية من القرآن الكريم: «ولهذا تجد المسيحية نفسها مجردة من كل أصل ثقافي. وهي قابلة عملياً للاتساع لكل البشر (بشرط محو ثقافتهم)..»[3].

ويقول المنصر "بول هايبرت": «لا تثار قضية الثقافة ما دامت الكنيسة ضمن

(1) المصدر السابق، ص80-81.

(2) هارفي م. كون، المسلم المتنصر وثقافته، (التنصير: خطة لغزو العالم الإسلامي، ترجمة المؤتمر التبشيري، كولورادو، مايو 1978م). ص134.

(3) سيرج لاتوش، تغريب العالم، ، ترجمة: خليل كلفت، (القاهرة: دار العالم الثالث، ط1، 1992م) ص34.

ثقافة شعب واحد، فالنصارى يستطيعون التعبير عن معتقداتهم باستخدام لغتهم ورموزهم الثقافية بدون أن يفكروا كيف صاغت هذه اللغة والثقافة معتقداتهم، ولا يتم الاعتراض إلا على تلك المجالات في الثقافة التي تتعارض بصورة مباشرة مع الكتاب المقدس. ولكن عندما تحركت الكنيسة باتجاه ثقافات أخرى اضطرت إلى مواجهة مسألة الثقافة»[1]، ويضيف: «والمشكلة العميقة التي تنشأ عن الاختلافات الثقافية هي أن كل واحد منا في الحقيقة قد تعلَّم أن طُرقنا الثقافية للقيام بعمل ما هي: "الطرق الصحيحة". ولهذا السبب عندما نواجه ثقافات أخرى ننزع إلى التفكير بأنها "بدائية"»[2].

ومن هنا يمكن أن نستنتج أن العلاقة بين النصرانية والثقافة الغربية هي علاقة انتماء لا علاقة بناء، فالنصرانية تنتمي إلى العناصر المكونة للثقافة الغربية، وليست المكون الذي بنيت عليه الثقافة الغربية.

ونستنتج أيضاً أن المنصرين حملوا معهم في تنصيرهم الثقافة الغربية، لانتمائهم إليها، ولشعورهم بفوقيتها وتفوقها، وأنها الأليق بالكتاب المقدس وبأتباعه، ولأنها أيضاً ثقافة البلدان التوسعية المستعمرة التي ينتمون إليها ويخدمونها.

المطلب الثاني: المنصرون والثقافات الأخرى

من خلال ما سبق تبين مدى الارتباط الكبير بين مهمة المنصرين والثقافة الغربية، الأمر الذي جعلها – أي الثقافة الغربية– جزءاً من عملية التنصير.

وأما عن الثقافات الأخرى فقد وقف المنصرون منها موقف الخصم، وبما أنهم ينطلقون ويعملون في العالم تحت ظلال القوة الغربية الاستعمارية، فقد ترجموا هذه

(1) بول ج. هايبرت، الكتاب المقدس والثقافة، ص77.

(2) المصدر السابق، ص79.

الخصومة إلى أقوال وأفعال تهدف إلى انتزاع المتَنصِّرين من ثقافاتهم وتحويلهم إلى الثقافة الغربية.

ومع مرور الوقت تحول هذا الإجراء المقتصر على المتَنصِّرين إلى استهدافٍ للثقافات الأخرى بشكل عام. ولذلك أسهم المنصرون بشكل فاعل في عملية تغريب الثقافات الأخرى، وهذه المسألة ستكون موضوع المبحث الثالث من هذا البحث.

يقول عبدالعزيز الكحلوت: «لقد نجحت المدارس التنصيرية في أفريقيا في شطب الثقافة الإفريقية ومسخها إلى حد كبير وأخرجت نخبة من المثقفين الماسوشيين الذين افتتنوا بحضارة الغرب وثقافته وعملوا في بلادهم "خداماً" للمستعمر، وأداة طيعة في يده، فحلت اللغات الأوروبية مكان اللغات المحلية، وانتمت الدول الإفريقية المستقلة إلى مجموعات الدول الناطقة بالفرنسية أو الناطقة بالإنجليزية»[(1)].

وجاء في الموسوعة العالمية الفرنسية (**Enc. Universalis'vol.11**) وصف العلاقة بين عمليات التنصير والاستعمار على النحو الآتي: «لابد من الإقرار بأن التوافق الحميم بين المبشّر وكل من الجندي والحاكم المُستغل والتاجر كان من السمات المتضافرة التي يمكن تفسيرها أو تبريرها. إلا أن الأخطر من كل هذا هو ذلك الحرمان المحبط الناجم عن سرقة شخصية الخاضعين لعملية التبشير وضياع هويتهم الثقافية وهويتهم الاجتماعية– الدينية. وهنا يمكن القول بأن السرقات الأخرى قد تهون بالمقارنة بما يقوم به هؤلاء السرّاق»[(2)]، أي أن سرقة المنصرين للهوية الثقافية للشعوب المستعمرة أعظم من السرقات الأخرى التي يقوم بها الاستعمار.

وتُعلِّق زينب عبدالعزيز على ما ورد آنفاً في الموسوعة الفرنسية بقولها: «وإذا ما

(1) الكحلوت، عبدالعزيز، التنصير والاستعمار في أفريقيا السوداء، طرابلس–ليبيا: منشورات كليات الدعوة الإسلامية، ط2، 1402هـ–1982م). ص117–118.

(2) نقلاً عن: زينب عبدالعزيز، تنصير العالم، (المنصورة: دار الوفاء، ط1، 1415هـ). ص96.

كانت الصلة بين الاستعمار والتبشير ثابتة لا يمكن إنكارها أو إغفالها، بل إن بعض المراجع تطلق على الكنيسة عبارة "الشريك الكامل للإمبريالية [1] الغربية"، فإن أخطر ما يواكبها فعلاً، هو عملية اقتلاع الهوية الحضارية، إذ نطالع في نفس الموسوعة: "فأينما تم غرس المسيحية تم هدم الحضارات القائمة من أجل إقامة حضارة مقلدة للنمط الغربي،.."

فالتبشير، الذي يقوم فعلاً بدور الشريك الكامل للإمبريالية الغربية باقتلاع الحضارات، يُعد الأداة التي تتم بها عملية التغريب: "فالإمبريالية هي ذلك الوجه القبيح الغاشم لتغريب العالم" على حد قول سرج لاتوش في كتابه المعنون "تغريب العالم"»[2].

ومن جهة أخرى، فإن نزعة تفوق العرق واللون كانت ولا تزال حاضرة في العقل الغربي، ولذلك فإن نقل المتَنصِّرين من الشعوب الأخرى من ثقافاتهم إلى الثقافة الغربية لا يعني بحال أن يصبحوا بمستوى العرق الغربي، بل هم حتماً، حتى وإن تنصروا، سيبقون دون مستوى الغربي.

يقول المنصر الألماني "ديدريش وسترمان" Diedrich Westermann: «إن الزنجيّ الذي كان يعيش في الأدغال محتقراً يصبح بالإسلام ذا مقام، ويجد أن الأوروبيين أنفسهم قد جعلوا –على الرُغم منهم– يعاملونه باحترام. أما إذا انتقل الوثني (والزنجي) إلى الجماعة المسيحية (أي: إذا صبأ إلى النصرانية)، فإن الذي يحدث هو خلاف ذلك تماماً. إننا نحن الأوروبيين نبقى دائماً غرباء عن الإفريقي، وحينما يتبنّى حضارتنا

(1) الإمبريالة Imperialism هي: ظاهرة اقتصادية سياسية عسكرية تتجسد في إقدام الدول القوية في العصر الحديث–أي الرأسمالية الصناعية– على التوسع وفرض سيطرتها على شعوب وأراض أجنبية، بدون رضى تلك الشعوب، وبهدف استغلالها وإخضاعها ونهب ثرواتها. الكيالي، عبدالوهاب، الموسوعة السياسية، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنسر، د.ط، د.ت). ج1، ص300.

(2) المصدر السابق، ص97.

في ظاهرها فإنه في الحقيقة لا يفهمها. إننا لم نتعلّم بعد، ولا المبشرون منا أيضاً، أن نتفهّم الزنجيّ في خصائصه المميزة له. إننا لم نكلف أنفسنا عناء الاهتمام بفهم حضارته وبترقية حضارته بعوامل من حضارتنا النصرانية. وبدلاً من أن نفعل ذلك رحنا نهدم حضارته، ثم نحاول أن نبدّلها بحضارتنا. وهكذا نجدنا معرّضين إلى أن نجعل من الزنجي صورة شوهاء للأوروبّي، بينما الإسلام يجعل منه أفريقياً يحترم نفسه»[1].

وهذه المسألة تجعلنا نستشعر عظمة الإسلام، وكيف أنه لا يفرق بين أتباعه، لا بلون ولا عرق ولا لسان، ولا بغير ذلك من الاعتبارات البشرية. بل إنه يذهب إلى أبعد من ذلك بجعلهم كالجسد الواحد. قال رسول الله ρ: « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»[2].

والخلاصة، أن المنصرين ناصبوا الثقافات الأخرى غير الغربية العداء، وجعلوها في موقع الخصم للثقافة الغربية التي أرادوها أن تكون ثقافة المتَنصِّر، ولكن الأمر لم يكن بتلك السهولة أو السذاجة التي تصوروها خاصة مع الثقافة الإسلامية؛ فانتزاع الإنسان من ثقافته وغرسه في ثقافة أخرى ليس بالأمر الهيّن أو اليسير، ولكن يبدو أن قوة بلدانهم وبغيها الاستعماري على شعوب العالم قد زيَّن لهم سهولة مثل هذا الأمر.

المبحث الثاني

موقف المنصرين من الثقافة الإسلامية

من خلال النظر والتأمل في أعمال وأقوال ومواقف المنصرين يمكن القول بأن

(1) مصطفى خالدي وعمر فروخ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ص244-245.

(2) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المسلمين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم 2586، ج4، ص1999.

موقفهم من الثقافة الإسلامية مرّ بمرحلتين، الأولى: رفض الثقافة الإسلامية وتشويهها. والمرحلة الثانية إضمار رفضها والعمل من خلالها.

وهذا الموقف، بمرحلتيه، هو ما سأتناوله في هذا المبحث من خلال المطلبين الآتيين.

المطلب الأول: رفض الثقافة الإسلامية وتشويه صورتها

سبق في المبحث الأول بيان موقف المنصرين الرافض والمناوئ للثقافات غير الغربية، وبيان سعيهم إلى انتزاع المتَنصِّر من ثقافته وإقحامه في الثقافة الغربية.

وهذا الموقف الرافض منهم كان على أشده مع الثقافة الإسلامية؛ لأنهم أدركوا في الميدان أن الثقافة الإسلامية ليست مجرد ثقافة تختلف عن ثقافتهم، بل هي حاجز منيع يضعف أمامه التنصير. ذلك لأنها منهاج حياة للمسلم وليست مجرد عادات وتقاليد يمكن التحول عنها إلى غيرها.ولذلك لم يقف موقف المنصرين من الثقافة الإسلامية عند مجرد الرفض فقط، بل تعدى ذلك إلى السعي لتشويهها ومحاولة إضعافها في الواقع بشتى الوسائل، كما سيأتي.

يقول المنصر "دون ماكري": «إن التقليد المتبع هو أن إرساليات التنصير كانت ترفض دائماً ثقافة المسلم المتَنصِّر وتفرض عليه ثقافة المنصر. وعملية الاقتلاع هذه والإصرار على هذا التحويل المزدوج، أي تحويل المسلم إلى المسيح أولاً، وإلى ثقافة المنصر ثانياً قد تكون حقاً أهم أسباب عدم فعالية العمل في صفوف المسلمين»[(1)].

ويضيف "ماكري" بأن: «تاريخ الكنائس وإرساليات التنصير يُفضل اقتلاع

(1) دون ماكري، حان الوقت المناسب لمنطلقات جديدة، (التنصير: خطة لغزو العالم الإسلامي، ترجمة المؤتمر التبشيري، كولورادو، مايو 1978م). ص12.

المسلم المتَنصِّر كلية من بيئته الاجتماعية والثقافية، وأساس ذلك هو إيمان النصارى بأن الثقافة والحضارة الإسلامية شريرة برمتها وليس فيها ما يمكن خلاصه، بل يتوجب إدانتها ورفضها جميعا» [1]. وهذا الموقف –بحسب "ماكري"– «أدى إلى حدوث ما يسمى بالصدمة الثقافية بالنسبة للمسلم المتَنصِّر، فبالإضافة إلى اتباعه الشرعي للمسيح فإنه يُجبر كذلك على قبول المفاهيم الثقافية والاجتماعية الخاصة بالمنصر سواء كان بروتستانتياً أم غير ذلك»[2]. وأما عن موقف المسلمين من المتَنصِّر (المرتد) فيضيف "ماكري" بأنه: «حتى في الحالات التي لا تطبق فيها عقوبة الموت فعلياً على المرتد فإنها تطبق ثقافياً واجتماعياً حيث يُعزل ويُطرد»[3].

ويقول المنصر "هارفي كون": «يُعلِّق كل من فردرك ستوك وماجرت ستوك بعد تحليلٍ قاما به في الباكستان التي يمثل المسلمون فيها 97% قائلين: "غالباً ما نفترض أن الاختلافات اللاهوتية هي الحواجز الأساسية في العمل على كسب المسلمين، ولكن هذا قد تم دحضه مراراً وتكراراً، فالعديد من المسلمين اقتنعوا بالنصرانية من الناحية اللاهوتية ولكنهم لم يستطيعوا اجتياز الحواجز الاجتماعية والثقافية"»[4].

وبعد إيراده شواهد عديدة من إندونيسيا وبنجلادش على حضور البعد الثقافي عند المتنصرين، يقول: «وهكذا نرى شهادات المتنصرين المدونة تبين أن المسلم لا ينظر إلى النصرانية على أنها ببساطة كفر ديني بل إنه يراها أيضاً نظيرةً

(1) المصدر السابق ، ص15.
(2) دون ماكري، حان الوقت المناسب لمنطلقات جديدة ، ص15.
(3) المصدر السابق، ص15-16.
(4) هارفي م. كون، المسلم المتنصر وثقافته، ص135.

للاستعمار وللحضارة والثقافة الغربية»[1].

وبعد إقراره بأن التنصير لا يقدم دعوة كاملة تشمل كافة جوانب الحياة كما يقدمها الاسلام، أشار إلى أثر ذلك على المتنصرين قائلاً: «وفي هذه العملية لا يعيد التنصير تشكيل الفرد بل يعزله ويحطِّمه، وتكون نتائج ذلك مأساوية للمسلمين الذين يتجاوبون مع رسالة المسيح» [2]، أي أن التنصير لم ينقلهم من ثقافة إلى ثقافة، بل عزلهم عن ثقافتهم وحطمهم. ولا غرو، فالنصرانية المحرفة التي يقدمها المنصرون إنما هي مسائل روحية لا علاقة لها بمنهاج الحياة، وهي تنسجم، كما هو معلوم، مع العلمانية الغربية التي تفصل الدين عن منهاج حياة الفرد.

لقد «رأى المبشرون والمستعمرون عظمة الثقافة العربية الإسلامية وأنها مصدر عزة للشرق وللعرب والمسلمين. ثم إنهم أيقنوا أن أمة لها هذه الثقافة لا يمكن أن تخنع أو تذل أو تبيد. وهكذا انصرفت أذهان هؤلاء المبشرين والمستعمرين إلى تشويه وجه هذه الثقافة وإلى الحط من شأنها في نفوس أصحابها»[3].

وفي سبيل هذا قام بعض المنصرين والمستشرقين بتأليف الكتب عن الثقافة الإسلامية، وعمل الموازنات بينها وبين الثقافة الغربية، ومن ثم العمل على تشويه صورة الثقافة الإسلامية[4].

ومن أمثلة ذلك التشويه ما أورده رجل الدين "المونسنيور كولي" في كتابه "البحث عن الدين الحق" الذي صدر عام 1928م، إذ قال: «في القرن السابع

(1) المصدر السابق، ص136.

(2) المصدر السابق، ص144.

(3) مصطفى خالدي وعمر فروخ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ص218.

(4) يُنظر: إبراهيم خليل أحمد، المستشرقون والمبشرون في العالم العربي والإسلامي، (القاهرة: مكتبة الوعي العربي، د.ط، د.ت)، ص80.

للميلاد، برز في الشرق عدو جديد، ذلك هو الإسلام، الذي أُسِّس على القوة، وقام على أشد أنواع التعصب. لقد وضع مُحَمَّد ρ السيفَ في أيدي الذين اتبعوه، وتساهل في أقدس قوانين الأخلاق. ثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب ووعد الذين يَهلكون في القتال بالاستمتاع الدائم بالملذات»[1].

وأما عن محاربة المنصرين للثقافة الإسلامية مباشرة على أرض الواقع فمثال ذلك ما جاء في التقرير الذي رفعه المسؤول السامي للبعثات التبشيرية في السنغال إلى مدير المستعمرات الفرنسية إذ اقترح عليه استعمال وسائل جدِّية للقضاء على المساجد والمحاكم الإسلامية، وعرقلة تثقيف الشباب المسلم ثقافة عربية إسلامية، كما اقترح طرد معلمي الكتاتيب القرآنية الذين أتوا من خارج السنغال، وتقليص الأحياء التي تدرس فيها اللغة العربية في كل مدن السنغال بحيث يقتصر على حيين في كل مدينة[2].

وحول مثل هذا التشويه والمحاربة يقول سلمان عبد المالك: «لقد درس المبشرون العالم الإسلامي من جميع نواحيه ثم وضعوا الخطط للقضاء على كل مقاومة أو مناعة فيه، ولكن العالم الإسلامي ظل صامداً دون أن يتأثر بمخططاتهم والتأثير الذي كانوا يرجونه، والسبب في ذلك أن العالم الإسلامي ظل يستمد الحياة من ثقافته العريقة التي ما زالت حية أربعة عشر قرناً. وعندئذ تفتق ذهن أعداء الإسلام إلى تشويه الثقافة الإسلامية والحط من شأنها في نفوس أهلها، حتى لا تبدو حقيقة الرسالة التي أداها المسلمون والعرب للإنسان، فقام

(1) نقلاً عن: البهي، مُحَمَّد، المبشرون والمستشرقون في موقفهم من الإسلام، ، (القاهرة: الجامع الأزهر، الإدارة العامة للثقافة الإسلامية، د.ط، د.ت). ص1.

(2) يُنظر: الهادي الدالي وعمار هلال، دراسة في حركات التبشير والتنصير بمنطقة إفريقيا فيما وراء الصحراء، (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ط1، 1422هـ-2002م). ص63.

المبشرون بالتشكيك فيها وفي نسبتها للمسلمين والعرب بل نسبوها للفرس واليونان ..»[1]

ولقد تعدى افتراء المنصرين على الثقافة الإسلامية وتشويهها في نفوس أهلها إلى تشويهها في الغرب والكذب على من يؤازرهم ويقدم لهم كل أنواع الدعم، فقد جاء في مقال كتبه أستاذ التاريخ في جامعة كولومبيا "إدوارد ميد ايرل" عام 1940م، بعنوان "الإرساليات الأمريكية في الشرق الأدنى" قوله: «هناك وجه واحد من هذا الموضوع يجب ألا يهمل بحال من الأحوال هو أن الرأي العام الأمريكي، فيما يتعلق بالشرق، قد خلقه المبشرون منذ قرن كامل. فإذا كان الرأي العام الأمريكي، قد طويت عنه بعض المعلومات أو غذي بمعلومات خاطئة أو دفع إلى موقف عدائي، فإن المبشرين هم الملومون في أكثر ذلك، لأن النظر إلى التاريخ على أساس انتشار النصرانية قد حمل هؤلاء المبشرين على أن يقدموا لنا في الولايات المتحدة صورة ناقصة مشوهة أو ساخرة في بعض الأحيان للمسلمين وللإسلام»[2].

وفي هذا السياق المعادي للثقافة الإسلامية اقترح بعض المنصرين تغيير مسمى التَّنصُّر لمن يقبل دعوتهم، وذلك لتخطي العائق الثقافي الذي يمنع المسلم من قبول تنصيرهم. وفي هذا يقول المنصر "هارفي كون": «كجزء من مهمتنا كمنصرين مؤثرين علينا أن نزيل أية "حجرات عثرة" أخرى، سواء أكانت ثقافية أم اجتماعية أم فكرية، كي يواجه المسلم المسيح وحده، وإذا كانت عبارة التَّنصُّر أو "التحول" قد أصبحت بالنسبة للمسلم رمزاً لفظياً للرفض الثقافي، فيجب

(1) سلمان سلامة عبدالمالك، أضواء على التبشير والمبشرين، (القاهرة: مطبعة الأمانة، ط 1، 1415هـ-1994م). ص85.

(2) مصطفى خالدي وعمر فروخ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ص23-24.

علينا أن نبحث عن لفظ مرادف ومشابه لحركة اليهود من أجل المسيح والذين يتحدثون بدلاً من التحول عن أنهم "اكتملوا بالمسيح"»[1].

ويعلق مُحَمَّد عمارة –رحمه الله– على مثل هذا الاقتراح بقوله: «إنهم يعترفون بممارسة احتقار الشعوب غير الغربية، والثقافات غير الغربية، وعلى الرغم من هذه الأوهام التي جعلتهم يعلقون الفشل على كراهة المسلمين للتحول الثقافي، وليس كراهتهم للتحول والارتداد الديني – وهي أوهام تفصل الإسلام الدين عن الثقافة الإسلامية– لأن أصحابها يغفلون –بسبب نصرانيتهم، التي لا تمثل منهاجاً شاملاً لكل مناحي الحياة– يغفلون عن خصوصية الإسلام، كمنهاج شامل للدين والثقافة والاجتماع والسياسة والاقتصاد والاخلاق.. وكل مناحي العمران –معرفة وتطبيقاً– برغم هذه الأوهام التي جعلتهم يغفلون عن ارتباط الإسلام بثقافته.. وعن أن ارتباط المسلم بالثقافة الإسلامية إنما هو ثمرة من ثمرات ارتباطه بمصدر صبغتها التي ميزتها، وهو الدين الإسلامي»[2].

والخلاصة، أن المنصرين في هذه المرحلة أدركوا أن الثقافة الإسلامية تقف دون قبول دعوتهم. فواجهوها بالرفض والتشويه والحرب المباشرة في المناطق التي تقع تحت النفوذ الغربي المباشر.

المطلب الثاني: التنصير من خلال الثقافة الإسلامية

لقد أدرك المنصرون خطأ أسلوب مهاجمة الثقافة الإسلامية ومواجهتها؛ لأنه لا يزيد المسلم إلا تمسكاً بها ونفرة من دعوتهم، فغيروا هذا الأسلوب – الذي مر

(1) هارفي م. كون، المسلم المتنصر وثقافته، ص147-148.

(2) مُحَمَّد عمارة، استراتيجية التنصير في العالم الإسلامي، (مالطا: مركز دراسات العالم الإسلامي، ط 1، 1992م). ص115.

معنا في المطلب الأول- إلى أسلوب آخر ماكر، وهو التسلل الناعم إلى الثقافة الإسلامية وخلخلتها من داخلها، لتكون مع مرور الوقت قابلة لبضاعة المنصرين ولثقافتهم الغربية، ولا يرى أتباعها أن ثمة ما يدعو إلى رفض التنصير أو الثقافة الغربية.

يقول المنصر " بشير عبد المسيح": «إن تجرؤنا –نحن الغربيين- على القيام بنقل ثقافتنا الغربية إلى أنحاء العالم والترويج لها في الهند وأفريقيا والشرق الأدنى كحقيقة من حقائق الكتاب المقدس ونجعلها مساوية للمسيح، يبدو سلوكاً منافياً للطبيعة والعقل...، فكيف يجب أن يشعر المسلم الذي يتقبل رسالة المسيح عندما نُصِّر على أن نجرِّده من كل ما يعرفه وكل ما اعتاد عليه»[1].

ويقول المنصر "دون ماكري": «يبدو أننا وعلى امتداد التاريخ الطويل للعلاقات النصرانية الإسلامية قد أخطأنا في اتجاهين ملحوظين: أولاً: لقد فشلنا في النظر إلى المسلمين باعتبارهم شعوباً مختلفة عرقياً. ثانياً: لقد تأثرت نظرتنا الحالية إليهم بمئات السنين من التعصب العرقي لثقافتنا الدينية»[2].

وجاء في رسالة وجهها بابا الفاتيكان "يوحنا بولس الثاني" إلى المنصرين قوله: «على المرسلين الذين ينتسبون إلى كنائس أخرى وبلدان أخرى أن يندمجوا في العالم الاجتماعي والثقافي للذين أُرسلوا إليهم... بالتأكيد لا يُطلب إليهم أن يتخلوا عن هويتهم الثقافية، بل أن يتفهموا ثقافة المحيط حيث يعملون، ويقدِّرونها ويُرَقوها، ويبشروا بالإنجيل... فبالاندماج الثقافي، تُجسِّدُ الكنيسةُ الإنجيلَ في

(1) بشير عبدالمسيح، استمالة المسلم عن طريق تجسيد شمائل وسلوك المسيح، (التنصير: خطة لغزو العالم الإسلامي، ترجمة المؤتمر التبشيري، كولورادو، مايو 1978م). ص117.

(2) دون م. ماكري، تحليل المقاومة والاستجابة لدى الشعوب المسلمة، (التنصير: خطة لغزو العالم الإسلامي، ترجمة المؤتمر التبشيري، كولورادو، مايو 1978م). ص251.

مختلف الثقافات»[1].

وأما كبير المنصرين وأستاذهم "صموئيل زويمر" فقد امتازت المرحلة الأولى من عمله في الشرق الأوسط بمهاجمة الإسلام، لكنه غير هذه الاستراتيجية فيما بعد واكتفى بالتشكيك فيه بدون مهاجمته مباشرة، وكانت جهوده التنصيرية تتم عن طريق المؤسسات التعليمية والثقافية والاجتماعية التي تخدم المجتمع العربي وتسعى إلى تقدمه على الطريقة الغربية، كما استغل المصادر البشرية والثقافية للكنيسة القبطية والأرمنية فنظم اللقاءات والمؤتمرات، وجعل من القاهرة في الربع الأول من القرن العشرين الميلادي مركزاً للدراسات الإسلامية والشرقية لتوفير المعلومات اللازمة للعاملين في التنصير[2].

وينقل المنصر "هارف كون" توصية أحد المنصرين العاملين في الميدان بضرورة العمل من خلال الثقافة الإسلامية، إذ قال: «كتب دون كوربن عن الجهود التنصيرية بين المسلمين في السنغال قائلاً: "يجب علينا أن نتحرك عبر الإسلام وعبر الثقافة السوداء أيضاً، أي عبر القبيلة التي يوجد فيها الإسلام في السنغال... فالإسلام بالنسبة للسنغاليين دين للسود»[3].

وفي إندونيسيا – كمثال آخر– نجد أن المنصرين قد سلكوا أيضاً أسلوب التسلل إلى الثقافة الإسلامية، ففي بدايات القرن العشرين الميلادي كان الطابع الإسلامي هو المسيطر على ثقافة الشعب الإندونيسي، وفي ذات الوقت كان العمل من المستعمرين والمبشرين يجري على قدم وساق من أجل التسلل إلى تلك

(1) عبدالفتاح غراب، العمل التنصيري في العالم العربي، (القاهرة: دار البدر، ط.ب، 2007م). ص123.

(2) يُنظر: القعيد، إبراهيم حمد، المخططات التنصيرية بين المسلمين تقييم لفلسفتها وإطارها الحركي، (أمريكا الشمالية: نشر رابطة الشباب المسلم العربي، ط.ب، 1403هـ-1982م). ص22-23.

(3) هارفي م. كون، المسلم المتنصر وثقافته، ص142..

الثقافة والتأثير عليها، وكان دور المبشرين الأجانب إعداد الرجال الإندونيسيين الذين يتولون تسريب الأفكار الغربية لتغيير طابع تلك الثقافة. وفي مرحلة لاحقة بدأ المبشرون الأجانب أنفسهم ينشرون أعمالهم التي لها صبغتها الغربية النصرانية باللغة الإندونيسية، وذلك للمشاركة مباشرة في عملية التغيير الثقافي في اندونيسيا[1].

ومن أمثلة النصارى الإندونيسيين، الذين كان لهم دور في التأثير على الثقافة الإسلامية في إندونيسيا، القس الكاثوليكي ديك هارتوكو Dick Hartoko الذي أسس عام 1952م مجلة ثقافية تحمل اسم: باسيس Basis، لا تزال تصدر حتى يومنا هذا، وقال عن نفسه في إحدى المحاضرات: «ولأني قسيس عليه أن يبلغ كلام الله إلى أمة تتكلم اللغة الاندونيسية أحسست أني مدعو إلى الاعتناء بالأدب الإندونيسي.... هذا هو السبب الذي دفعني أنا القسيس الكاثوليكي إلى الاعتناء به»[2].

وفي باكستان يرى أحد المنصرين بأن الباكستاني المتَنصِّر حديثاً ربما يستطيع أن يستخدم عدداً كبيراً من صيغ ثقافته دون أن يتزعزع إيمانه الجديد كطريقة نومه وأكله، ويجب عليه في ذات الوقت أن يتخلى عن بعض الصيغ الثقافية لأنها مرتبطة بشكل متين جداً بنظام دينه القديم ويؤدي الاستمرار عليها إلى تعريض الطبيعة الأساسية والخصوصية النصرانية للخطر[3].

وأما المنصر "بشير عبد المسيح" فقد ذهب إلى تأصيل أسلوب التسلل هذا،

(1) يُنظر: مغفور عثمان، التبشير وآثاره في اندونيسيا في القرن الرابع عشر الهجري، (رسالة دكتوراه، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، 1403هـ-1983م). ص380.

(2) المصدر السابق، ص381.

(3) بول ج. هايبرت، الكتاب المقدس والثقافة ص81-82.

مستشهداً في تأصيله بأفعال "بولس الرسول"، مؤسس النصرانية المحرفة المعروفة اليوم (ت67م)، حيث قال: «يقول الرسول بولس: " جعلت من نفسي عبداً لجميع الناس حتى أربح أكثر"..، كما قال: "وصرت لليهود يهودياً لأكسب اليهود". وأضاف في نفس السياق: " صرت للذين بلا شريعة كالذي بلا شريعة، مع أن لي شريعة من الرب بخضوعي لشريعة المسيح"..، والذي يعنيه الرسول بولس من هذا كله أنه بالنسبة لقضية الثقافة فإن مبلغ الرسالة وليس المستمع هو الذي عليه أن يتغير..، كما أن الرسول بولس يعني أنه يجب أن توضع الرسالة الحية في إطار ثقافي يتناسب تماماً مع الزمان والمكان حيث يجب أن يتجسد المسيح في أطراف "ثقافية معينة"...، فقد جسد الرسول بولس المسيح في شكل يهودي كي يصل إلى اليهود، وجسده في شكل وثني كي يصل إلى الوثنيين، فهل لدينا الجرأة على سلوك مسلك يسوع والرسول بولس وأن ندعو إلى "مسيح متجسد بشكل إسلامي" كي نصل إلى المسلمين؟...، إن الرسول بولس يدعونا لأن نفكر مثل هذا التفكير، فما الذي نحن على استعداد للذهاب إليه كي نجسد المسيح في بيئة إسلامية؟ هل يمكننا أن نكون قد اتبعنا النموذج الذي أعطانا إياه المسيح في التجسد إذا ما قمنا بلبس العمائم والجلابيب وذهبنا إلى أماكن عبادتهم حتى لو نظر إلينا الناس خطأ كمسلمين؟»[1].

وتأكيداً لهذا الأسلوب الناعم الماكر يقول أحمد عبدالوهاب: «يستخدم المبشرون تكريم القرآن الكريم للمسيح وأمه في إدخالهم المفاهيم المسيحية في عقول المسلمين. فإذا ما اصطدم المسلم بتعبير مسيحي مثل قولهم "ابن الله" فإن تطور وسائل التبشير يطلب من المبشر أن يتناول ذلك التعبير تأويلاً روحياً، حتى لا ينفر منه أولئك الذين لا يؤمنون هذا الإيمان، فيستطيع أن يقاربهم حينئذ بما

(1) بشير عبدالمسيح، استمالة المسلم عن طريق تجسيد شمائل وسلوك المسيح، ص113-114.

يرون أن يدعوهم إليه. فالمبشرون –كما يقول تشارلز واطسون– "يجب أن يكونوا بُرَآو كالحمام، ولكن هذا لا يمنعهم أيضاً من أن يكونوا حكماء كالحيات»[1].

وبعد، فيتضح مما مضى عظم الخطر التنصيري الذي يواجه المسلمين في ثقافتهم، إذ باتت هدفاً لتسلل المنصرين وبث سمومهم من خلالها، سواء أدى ذلك التسلل الناعم من خلالها إلى تنصُّر المسلم وارتداده عن دينه أم لا، فتشويه الثقافة الإسلامية وتغريبها بات هدفاً مقدماً عند المنصرين على تنصير المسلمين. وهذه المسألة (تغريب الثقافة) هي موضوع المبحث التالي.

المبحث الثالث

دور المنصرين في التغريب

يصف سيرج لاتوش في كتابه "تغريب العالم" التقدم التقني الغربي بـ "الآلهة الجديدة"، ويرى أن المنصرين كان لهم دورهم في نشر هذه الآلهة في العالم، وذلك بتوظيفهم لها في إقناع الناس بالتنصر، فيقول: «أسهم المبشرون المسيحيون كثيراً في نشر هذه العبادة العلمانية. ذلك أن تنصير السكان "الهمجيين" لم يكن يحتاج إلى شيء احتياجه إلى إثبات فعالية سحر الرجل الأبيض، وعندما يتجلى، بفضل التقنية، أن سحر الرجل الأبيض متفوق على سحر السكان الأصليين، يكون التنصُّر من حُسْن الفِطَن»[2].

وينقل المنصر "دون ماكري" بعض آراء المنصرين حول الفائدة التي تعود على

(1) أحمد عبدالوهاب، حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر، (القاهرة: مكتبة وهبة، ط 1، 1401هـ-1981م). ص165.

(2) سيرج لاتوش، تغريب العالم، ص25.

التنصير جراء التغريب، الذي يصفونه بالتحديث، فينقل عن أحدهم قوله: «التحديث يؤدي إلى تمزيق التقاليد الثقافية الأمر الذي يعني في أحسن الأحوال اقتلاع جذور الفرد وتثبيت المجتمع»[1]، ثم ينقل عن منصر آخر بعض العوامل التي تجعل الإنسان على استعداد لتقبل الكتاب المقدس (أي التَنصُّر) وذكر منها: التمدن، والاستعمار، واعتماد النمط الغربي في الحياة (التغريب)، والتغييرات السياسية، ..الخ[2]، وينقل عن المنصر "بيتر واكنر" قوله: «أينما يمر الناس بتحول اجتماعي واقتصادي سريع أو جذري فإن الكنائس يمكن أن تزداد»[3].

ويرى الدكتور علي النملة، أن من أهم أهداف التنصير«التغريب، وذلك بالسعي إلى نقل المجتمع المسلم في سلوكياته وممارساته، بأنواعها السياسي والاقتصادي والاجتماعي والأُسْري والعقدي، ومن أصالتها الإسلامية إلى تبني الأنماط الغربية في الحياة، وهي المستمدة من خلفية دينية نصرانية أو يهودية»[4].

وأما على أرض الواقع فقد بذل المنصرون جهدهم في التغريب. يقول عبدالعزيز الكحلوت: «لم تكن المدارس التنصيرية تهتم بالبيئة الإفريقية وإنما ركزت جل اهتمامها على البيئة الأوربية والحياة الأوربية من أجل ترسيخ قيم الغرب وثقافته حتى منذ الطفولة المبكرة»[5]، ويضيف أيضاً: «عملت البعثات التنصيرية الأوربية طوال سنوات وجودها في القارة الإفريقية على نصرنة الإفريقي وغربنته Christianize and

(1) دون م. ماكري، تحليل المقاومة والاستجابة لدى الشعوب المسلمة ص256.

(2) المصدر السابق، ص257-258.

(3) المصدر السابق، ص257.

(4) النملة، علي بن إبراهيم ، التنصير في المراجع العربية، (الرياض: نشر جامعة الإمام مُحَمَّد بن سعود الإسلامية، ط2، 1424هـ-2003م)، ص57.

(5) الكحلوت، عبدالعزيز ، التنصير والاستعمار في أفريقيا السوداء، ص95.

«westernize»[1].

لقد «كانت البعثات التبشيرية في الطليعة الأولى، في ميدان نشر الثقافة الغربية في إفريقيا، حيث قامت بنشاط كبير في ميدان التعليم، غير أن الاحتلال الفرنسي اضطر أن يُشرف على التعليم بنفسه دون أن يهمل مؤازرة البعثات التبشيرية..، كما كانت الغاية من نشر هذا التعليم منافسة الدين الإسلامي من جهة وانتشار اللغة العربية في إفريقيا الغربية من جهة أخرى»[2].

وفي المغرب الأقصى يقول الحناشي بلقاسم: «وما التبشير إلا شكل من أشكال التحديات الغربية لتكييف المغربي حتى يتدرج في الأخذ بأساليب حضارة الغرب»[3].

ويؤكد محمود عبدالرحمن على أن المنصرين عملوا على تشويه الفكر الإسلامي، وإنكار جدته وأصالته، والزعم تارة بأنه فكر يوناني كُتب بأحرف عربية، أو أنه مستمد من اليهودية والمسيحية تارة أخرى[4].

وفي ذات السياق التغريبي للمنصرين تقول أمل الخضري: «يَعتبر المنصرون نشر الكتب التنصيرية هو نشر للفكر النصراني دون مناقشة أو جدل، أو تسبب في إحداث خصومات مباشرة، كما أن نشر تلك الكتب هو أكثر فائدة من نشر الفكر والعلم النصراني عن طريق المجادلة، فإلقاؤها هكذا بين يدي القارئ هو أعم نفعاً من وجهة نظر المنصرين، وأجلب للمحبة التي هي آلة المنصر، والتي لها وقع كبير على

(1) المصدر السابق، ص107.

(2) الهادي الدالي وعمار هلال، دراسة في حركات التبشير والتنصير بمنطقة إفريقيا فيما وراء الصحراء، ص 71. –بتصرف يسير–.

(3) الحناشي، بلقاسم، الحركات التبشيرية في المغرب الأقصى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، (تونس: مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية، د.ط، 1989م). ص150.

(4) يُنظر: محمود عبدالرحمن، التنصير والاستغلال السياسي، (بيروت: دار النفائس، ب.ط، 1430هـ–2009م). ص87.

القلوب»[1].

ولم يَغفل المنصرون أيضاً عن بث سمومهم التغريبية في الإنتاج الأدبي. يقول نجيب الكيلاني: «لم يقع الأدب النصراني في السذاجة والسطحية، فقد استخدم الإمكانات الفنية المتاحة له، والمجربة في بلاده، بدهاء وحنكة بالغين، فمزجت فنونه السم بالدسم كما يقال ولجأت إلى التلميح بدلاً من التصريح، واستخدمت الرمز وألوان الإثارة والتشويق، ونأت بجانبها عن السرد الأجوف، والتعبير المباشر الممل، ووظفت الإيحاءات توظيفاً ماكراً، ورسمت حركة الحياة والأفراد وأنماط السلوك، رسماً يتفق ومعتقداتها، ويبعد بها عن النماذج الإسلامية العريقة، وأغرقت في إبراز المنعطفات الإنسانية، ورقة المشاعر والأحاسيس، وتبنت تبرير ضعف الإنسان، والعطف على آلامه وأحزانه، وأكدت تأكيداً شديداً ونهائياً على ضرورة الالتزام بالرضوخ والاستسلام واتباع الأساليب السلمية وحدها، مع البشر كافة، خاصة مع القوى الغاصبة المستعمرة»[2].

ويتحدث الدكتور علي النملة حول إسهام الملحقيات الثقافية في التنصير، فيقول: «ومما يدخل في أعمال الملحقيات الثقافية الأجنبية، أي غير الإسلامية، في هذا المجال إنشاء المدارس الأجنبية للجاليات الأجنبية وطبعها بالطابع التنصيري في المناهج وأوجه النشاط غير المنهجية، كالثقافية التي يبدو من ظاهرها التعريف بالبلاد التي تمثلها الملحقية، وفي باطنها الدعوة المتخفية إلى التنصير»[3].

ويرى النملة أيضاً أن: «التبادل الثقافي يعدُّ إحدى الوسائل المهمة والمتخفية للتنصير. وتقوم معاهدات واتفاقيات ثقافية بين بلاد المسلمين والبلاد الأجنبية، يكون

(1) الخضري، أمل عاطف، التنصير في فلسطين في العصر الحديث، ص175-185.
(2) نقلاً عن: الغزالي، محمد، الغزو الثقافي يمتد في فراغنا، (القاهرة: دار الشروق، د.ص، د.ت). ص104.
(3) النملة، علي بن إبراهيم ، التنصير في المراجع العربية، ص73-74.

نصيب المسلمين منها غالباً عرض "الفلوكلور الشعبي" من رقص وغناء ولباس الذكور والإناث، وأكلات شعبية وصناعات يدوية ونحوها، وقد يسمح بتوزيع كتيبات ونشرات وشرائح وأفلام عن البلاد العارضة ونهضتها المادية. ويكون نصيب البلاد الأجنبية إقامة المراكز الثقافية الدائمة، واستقطاب رجال الفكر والثقافة من أبناء البلاد نفسها، وجلب المحاضرين من مفكرين وأساتذة جامعات ورجال سياسة وقانون،..»[1].

ويضيف أيضاً بأن: «المنح الدراسية وسيلة من وسائل التنصير المتخفي، ذلك أن بعض المنظمات التنصيرية تختار من النجباء، ومن يتبين عليهم قسط عالٍ من الذكاء، وتسهل لهم مواصلة دراساتهم الجامعية والعليا في الغرب، وترعاهم بالمنح المباشرة، أو بإعطائهم الإعانات المقطوعة، أو الإسهام في بعثهم إلى الجامعات والمعاهد العليا»[2].

وبعد، فهذه إلماحة عن مدى ارتباط المنصرين بالتغريب فكراً وواقعاً، الذي يأتي ضمن أدوات الرؤية الغربية في السيطرة على العالم، سواء حينما كان يطبقها في الماضي عبر الاستعمار المباشر، أو في تطبيقها حالياً عبر الهيمنة غير المباشرة.

وقد وصف سيرج لاتوش هذه الرؤية الغربية بغزو العالم، حيث قال، وهو يصف ارتباط التنصير والأعمال الخيرية بهذه الرؤية: «لاشك، إذن، في أن الظاهرة "التبشيرية" حقيقة أكيدة من حقائق الغرب تبقى بعد كافة مضامينها الدينية. ونحن نلقاها دائما وهي تفعل فعلها تحت أكثر الأشكال تبايناً. ففي أوكورومبا، فوق مرتفعات غينيا الجديدة، يقع المقر العام الكبير للمعهد الصيفي للغويات...، كما تُرجمت التوراة والأناجيل بواسطة المبشرين الموفدين إلى هناك بهدف غزو الأرض. ونفس الظاهرة موجودة في الأمازون. ويتّبع زرع وكالات الغوث الكاثوليكي في أفريقيا، من 1945

(1) المصدر السابق، ص96.

(2) المصدر السابق، ص101.

إلى يومنا هذا، نفس منطق الغزو..، ويبدو أن مضاعفة الهيئات غير الحكومية (ONG) والمنظمات والخيرية.. يأتي في سياق مباراة رهانها شكل أكيد من أشكال السيطرة على العالم» [1]، ويضيف: «لا شك أن هذا النشاط الإحساني والعقلاني ليس سوى مظهر، ومظهر جذاب، للغرب، لكنني أعتقد أن الغرب يتمثل في ذلك أيضاً. وحتى في الوقت الحاضر، ينشأ الجانب الأكبر من مشروعات التنمية كقاعدة في العالم الثالث، على نحو مباشر أو غير مباشر، تحت راية الصليب» [2]

وأما عن مدى تفاؤل المنصرين بنتائج التغريب فينقل المنصر "دون ماكري" عن المستشرق "برنارد لويس" رأيه في مدى تأثر العالم الإسلامي بالتغريب، حيث قال "لويس": «إن وحدة العالم الإسلامي على أية حال مضمحلة أكثر من أي وقت مضى، ليس سياسياً فقط كما حدث في العهد العباسي وإنما دينياً وثقافياً، بل بسبب التآكل الذي أحدثه النمط الغربي في حياتهم بل وسيطرة الأنماط الغربية على حياتهم... لقد كان للتحديث آثاره ليس فقط في زرع بذور الاضطراب في عقول من تأثروا به وفقدوا بذلك تأثير الإسلام عليهم، وإنما عمل أيضاً وأكثر من أي وقت مضى على خلق الفرقة بين أجزاء عديدة من العالم الإسلامي» [3].

لقد كان هذا الزعم من المستشرق "برنارد لويس" في السبعينيات الميلادية من القرن العشرين. ولئن كان بعض واقع العالم الإسلامي آنذاك يصدقه، إلا أن الإحياء الديني الذي عم أرجاء العالم الإسلامي، منذ ذلك التاريخ تقريباً، يثبت أن المسألة ليست تآكلاً واضمحلالاً، كما يصورها "لويس"، وإنما هي وجه من وجوه الصراع بين الحق والباطل، وأن أدوات النصر على الباطل في متناول يد المسلم، متى ما أخذ بها

(1) سيرج لاتوش، تغريب العالم، ص36-37، بتصرف يسير.

(2) المصدر السابق، ص37.

(3) نقلاً عن: دون ماكري، تحليل المقاومة والاستجابة لدى الشعوب المسلمة، ص251.

اضمحل الباطل وباء أصحابه بالخسران.

والخلاصة أن المنصرين أسهموا بشكل فاعل في عملية تغريب العالم الإسلامي، ولا يزالون، وهم يرون في التغريب هدفاً أساساً ضمن أعمالهم التنصيرية، التي تخدم في نهاية المطاف الهيمنة والثقافة الغربية.

المبحث الرابع

المنصرون ووحدة المسلمين ولغتهم

تُعد وحدة المسلمين ولغتهم العربية من أبرز المظاهر التي تُميز الثقافة الإسلامية. ويمكن لغير المسلم أن يدركها حتى وإن لم يعرف حقيقة الثقافة الإسلامية أو أن يغوص في مضامينها. وهذه الوحدة بطبيعة الحال هي نتيجة طبيعية لربانية مصدر الثقافة الإسلامية، قال جل في علاه قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾[الأنفال:63] وقال سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلْعَظِيمِ أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيمِ أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [آل عمران:103].

وفي المطلبين الآتيين سأتناول موقف المنصرين من الوحدة الإسلامية ومن اللغة العربية. وبالله التوفيق.

المطلب الأول: موقف المنصرين من وحدة المسلمين

إن وحدة المسلمين كانت ولا تزال هاجساً يقلق الغرب؛ لأنهم يرونها مهدداً كبيراً لنفوذهم وسيطرتهم. ولقد كان للمنصرين دورهم الكبير في مواجهة وحدة المسلمين بأقوالهم وأفعالهم.

و«بما أن رابطة الوحدة في الإسلام رابطة متينة فإن حلَّها يتطلب جهوداً ضخمة ومستمرة، لذلك عمل المنصرون وأسيادهم على تجنيد كل طاقاتهم لمواجهة هذه الوحدة، ..، يقول القس سيمون: "إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب الإسلامية وتساعد على التملُّص من السيطرة الأوروبية، والتنصير عامل مهم في كسر شوكة هذه الحركة". ويقول المنصر مورو بيرجر: "إن الخوف من العرب واهتمامنا بالأمة العربية ليس ناتجاً عن وجود البترول بغزارة عند العرب بل بسبب الإسلام. يجب محاربة الإسلام للحيلولة دون وحدة العرب التي تؤدي إلى قوتهم، لأن قوة العرب تتصاحب دائماً مع قوة الإسلام وعزَّته"»[1]

ويقول لورنس براون: «الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام وفي قدرته على التوسع والإخضاع، وفي حيويته: إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوروبي»[2]، ويقول أيضاً: «إذا اتحد المسلمون في إمبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطراً، أو أمكن أن يصبحوا أيضاً نعمة له. أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بلا وزن ولا تأثير»[3]

هذه بعض أقوالهم، وأما أفعالهم فقد كان إحياء القومية في العالم الإسلامي

(1) محمود عبدالرحمن، التنصير والاستغلال السياسي، ص58-59.

(2) مصطفى خالدي وعمر فروخ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ص184.

(3) المصدر السابق، ص37.

من أهم الأسلحة التي استخدمها المنصرون في مواجهة وحدة المسلمين، فقد ظهرت الدعوة للقومية العربية للمرة الأولى في العالم الإسلامي على يد الجمعية السورية عام 1847م، وهي جمعية أُنشئت بتوجيه وحماية إرساليات التبشير الأمريكي. ثم تبنت تلك الدعوة الجامعة الأمريكية في بيروت عام 1875م، وكان للمنصرين الأمريكيين الأثر في انتشار هذه القومية. واعتمد هؤلاء الأمريكيون على اثنين من العرب، وهما ناصيف اليازجي و بطرس البستاني، فألفوا كتباً مدرسية لهذا الغرض. واللافت للانتباه أن المثقفين المسيحيين العرب كانوا هم الأسبق إلى تبني الفكر القومي، ومنهم، بالإضافة إلى السابق ذكرهم، سليم البستاني وإبراهيم اليازجي وميشيل عفلق وأنطون سعادة وغيرهم[1].

وكان من أساليب المبشرين في إندونيسيا تشويه صورة الإسلام في كتبهم ومنشوراتهم ودروسهم (في مدارسهم) تنفيرا للناس عنه، ونشر المفاهيم غير الإسلامية والدعاية لها من أجل إضعاف تعلق المسلمين بالتعاليم الإسلامية وتطبيقهم لها في حياتهم اليومية ، ومن تلك المفاهيم التي نشرها المنصرون في العقد الثاني من القرن العشرين الميلادي "مفهوم القومية"، حيث خلق هذا المفهوم صراعاً فكرياً بين المسلمين وأحدث صدعاً في صفوفهم، خاصة فيما يتعلق بمواجهة المستعمر الهولندي[2].

وفي المغرب العربي يؤكد بلقاسم الحناشي بأن «التبشير لا يريد التنصير فقط وإنما يعمل لتأكيد السيطرة الغربية بأساليب الدعوة الإقليمية حيث التمزيق والتفرقة لتأكيد سياسة النفوذ الأجنبي. ولقد كان هذا النمط من العمل من أثمن

(1) عبدالفتاح غراب، العمل التنصيري في العالم العربي، ص168-172.

(2) يُنظر: مغفور عثمان، التبشير وآثاره في اندونيسيا في القرن الرابع عشر الهجري، ص354-356.

ما لجأ المبشرون لاستخدامه. ومن هنا تكون الصلة بين دعامتي التغريب شديدة ووثيقة. فمادة الاستشراق هي معطيات التبشير عن طريق المدرسة والصحيفة. فالاستشراق والتبشير كلاهما يعمل لخدمة النفوذ الغربي»[1].

والحق أن مثل هذه الدعوة التي تتنافى بداهةً مع نظام الإسلام وهديه وجدت لها آذاناً صاغية وقلوباً زائغة في العالم الإسلامي، الأمر الذي أثَّر في وحدة المسلمين وتعاضدهم وتآخيهم، قال سبحانه وتعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾[آل عمران:149]

المطلب الثاني: موقف المنصرين من اللغة العربية

يقول المستشرق الفرنسي هنري لاوس Henri Laoust: «عندي أن "اللغة العربية" من أهم دواعي وحدة الثقافة بين المسلمين» [2]، ويضيف مؤكداً: «وهنا أعود فأقول إن وحدة اللغة العربية في الأقطار الإسلامية كانت من أسباب الوحدة الفكرية بين المسلمين»[3].

إن كلام هذا المستشرق يختصر الكثير مما يمكن أن يقال في موقف الغرب من اللغة العربية. ولا غرو بعد ذلك أن نرى في أرض الواقع كيف بذل أرباب التنصير والاستشراق الجهود الماكرة الكبيرة في سبيل إقصاء اللغة العربية عن حياة

(1) الحناشي، بلقاسم، الحركات التبشيرية في المغرب الأقصى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ص145.
(2) هنري لاوس، الثقافة الإسلامية، مجلة الحديقة، القاهرة، ع11، يناير 1933م. ص179.
(3) المصدر السابق، ص187-188.

المسلمين، وإضعاف استعمالهم لها.

يقول مصطفى خالدي وعمر فروخ في كتابهما التبشير والاستعمار: «يرى أكثر الهاجمين على استعمار الشرق أن تقطيع أوصال العرب والمسلمين لا يمكن أن يتم ما دام هنالك "لغة واحدة" يتكلمها العرب ويعبر بها العرب والمسلمون عن آرائهم وما دام هنالك "حرف عربي" يربط حاضر المسلمين إلى تراثهم الماضي. فإذا حمل المبشر والمستعمرون العرَبَ على الكتابة باللغة العامية أصبح لكل قطر عربي لغة خاصة به أو لغات متعددة. ثم إذا هم استطاعوا أن يحملوا المسلمين على التخلي عن الحرف العربي وإحلال الحرف اللاتيني مكانه انقطعت صلة العرب تماماً بأدبهم القديم وبالمؤلفات الدينية واللغوية والأدبية والتاريخية والفكرية. حينئذ يصبح العرب "وحدات" لغوية فكرية غير متعارفة، ثم تتنافر هذه الوحدات مع الزمن فيسهل إخضاعها بجهد أيسر من الجهد الذي تحتاج إليه هذه الغاية الآن»[1]

وأضافا بأن: «الحملة على اللغة العربية إنما هي في حقيقتها حملة على اللغة التي تجمع بين العرب والمسلمين، وحملة على العروبة والإسلام، وأمنية في أن يصبح القرآن كتاباً لا صلة له بالحياة: يستطيع نفر من المسلمين أن يقرأوه من غير أن يفهموا منه شيئاً ومن غير أن يشعروا بما فيه إلا كما يشعر الوثني إذا نظر إلى صورة معلقة في الجدار أو إلى وثن قائم على قاعدة من الحجارة»[2]

لقد ركز المنصرون والمستشرقون على محاربة اللغة العربية بدعوى أنها عاجزة عن مسايرة الركب الحضاري والتقدم العلمي والتطور التكنولوجي، ونادوا بإحياء

(1) مصطفى خالدي وعمر فروخ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، ص224.

(2) المصدر السابق، ص231.

العامية، وأبرز هؤلاء: الألماني "ولهلم سْبيتَّا" Wilhelm Spitta، صاحب كتاب "لهجات المصريين العامية"، والإنجليزي "وليام ويلكوكس" William Willcocks الذي ترجم الإنجيل إلى اللهجة المصرية وكان من الدعاة إلى تبنيها بدلاً من اللغة العربية الفصحى كلغة للقراءة والكتابة، وكذلك الألماني "كارل فولرس" Karl Vollers صاحب كتاب "اللغات العامية المصرية وغيرهم[1].

وإبان الاحتلال الفرنسي للجزائر قام "شوطان"، وزير داخلية فرنسا عام 1938م، بإصدار قرار يمنع تعليم اللغة العربية في الجزائر باعتبار أنها لغة أجنبية، كما قام بإلغاء معاهد التعليم الديني واللغة التي كانت سائدة في الجزائر آنذاك[2].

وأدت سياسة محاربة الثقافة الإسلامية في جنوب السودان إبان الاحتلال الإنجليزي، والتي كانت تسمى "سياسة الجنوب"، إلى تحريم التخاطب بالعربية في جنوب السودان ومنع استخدام أساليب الثقافة العربية، ومنع إطلاق الأسماء العربية، وإكراه أصحاب الأسماء العربية على تغيير أسمائهم إلى أسماء أفرنجية، إلى غير ذلك من السياسات التي تقضي بمنع أي تأثير من شمال السودان (المسلم) على جنوبه، الأمر الذي أفضى بالمبشرين أن يكونوا سادة الجنوب، يقررون فيه ما يشاؤون[3]، ثم مع الوقت أدى إلى انفصال جنوب السودان واقتطاعه من السودان (المسلم) ليكون عام 2011م، بدعم من الغرب، دولة مستقلة.

(1) يُنظر: محمود عبدالرحمن، التنصير والاستغلال السياسي، ص83.

(2) يُنظر: عبدالفتاح غراب، العمل التنصيري في العالم العربي، ص85-86.

(3) يُنظر: حسن مكي أحمد، المشروع التنصيري في السودان 1843-1986م، (الخرطوم: المركز الإسلامي الإفريقي، د.ط، 1411هـ-1991م). ص68-69.

والخلاصة أن الغرب عبر أذرعته التنصيرية والاستشراقية وغيرها لم يفتأ يوماً من الأيام في السعي نحو تفتيت وحدة المسلمين ومحاربة لغتهم المشتركة، لغة القرآن. ولا يضير الاعتراف بأن هذه المساعي لم تذهب سدى بل أثرت وأضعفت، ولكنها أيضاً لاقت –ولله الحمد– مقاومة ودحضاً، هنا وهناك، ولئن كان للباطل جولة فإن للحق جولات بإذن الله.

الخاتمة

أولاً: النتائج:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والشكر له على تمام هذا البحث الذي من أبرز نتائجه الآتي:

1. أن النصرانية ليست المكون الأساس الذي تقوم عليه الثقافة الغربية المعاصرة، وإنما هي عنصر من عناصرها العديدة . ومن ثَمَّ لا يمكن لنا أن نصف الثقافة الغربية بأنها ثقافة نصرانية.
2. أن المنصرين حملوا معهم في تنصيرهم الثقافة الغربية، لتكون ثقافة المتَنصِّر.
3. أن حمل المنصرين للثقافة الغربية والترويج لها لأنهم يرونها ثقافة القوة والتمدن والتوسع التي تليق وحدها – بزعمهم– بكتابهم المقدس.
4. وقف المنصرون من الثقافات الأخرى غير الغربية موقفاً عدائياً، لأنهم يرون أن المسيحية لا تتفق مع أي ثقافة أو حضارة أخرى غير الغربية.
5. نالت الثقافة الإسلامية نصيب الأسد من عداء المنصرين الظاهر، ورفضهم وتشويههم لها، وكان هذا في المرحلة الأولى من موقفهم منها.

6. في المرحلة الثانية غير المنصرون موقفهم الرافض للثقافة الإسلامية ظاهراً إلى إضمار ذلك الرفض مع العمل على التنصير من خلالها.
7. وقفت ثقافة المسلم حاجزاً أمام التنصير الذي كان يريد من المسلم المتَنصِّر أن ينسلخ منها بعد تنصره ويلتحق بالثقافة الغربية.
8. أن المنصرين كان لهم دورهم الظاهر والمهم في التغريب.
9. أن وحدة المسلمين ولغتهم العربية هي أبرز مظاهر الثقافة الإسلامية التي يدركها الغرب ويخشاها.
10. أن المنصرين سعوا بأقوالهم وأفعالهم إلى هدم وحدة المسلمين وإضعاف صلتهم بلغتهم العربية.

ثانياً: التوصيات:

من خلال ما مضى من نتائج أرى التوصية بالآتي:

1. توجيه وتشجيع الأبحاث المتخصصة في التنصير، وذلك لاستمراره وتجدده.
2. نشر الوعي بين المسلمين بخطورة أساليب التنصير الجديدة، التي تقوم على الخفاء والبعد عن المواجهة.
3. غرس أهمية الثقافة الإسلامية وشرف الانتماء إليها في نفوس شباب المسلمين.
4. دعم نشر اللغة العربية وتعزيز حضورها في حياة المسلمين، فهي من أبرز مظاهر وحدة المسلمين وقوتهم.
5. إجراء المزيد من البحوث العلمية المتخصصة التي تسهم في تعزيز الثقافة الإسلامية وحمايتها من الأخطار والتحديات التي تحيط بها.